ألبيركامو... بين الضّفّتين وبين المواطنة والولاء

ملخص

شاءت الأقدار أن يولد البير كامو على أرض الجزائر فأصبح جزائري المولد ، فرنسي الانتماء والمواطنة. وبذلك يمكن أن يصبح حلقة وصل بين متناقضين لا يمكن الجمع بينهما.

وجد نفسه في دائرة عاطفية مشكوك في صدق أبعادها، لم تكن لديه القدرة على التحكم فيها أو السيطرة على منطلقاته الأيدلوجية فوقع في الأسر. ولكنه لم يستطع أن يستمر طويلا أمام هول الأحداث التي عرفتها الجزائر خلال ثورة التحرير الكبرى 1954- 1962. فصرح معلنا موقفا وإرادة: " أنه يؤمن بالعدالة، ولكنه يختار أمه على العدالة " وهنا ضاعت مبادئه، وغيب التزامه، بالعدالة الضائعة التي لم تكن حرب التحرير الجزائرية إلا ترجمة لروح تلك العدالة إن لم تكن أمها .

إن البير كامو هو ظاهرة ضاعت مواقفها الإنسانية، ووجدت نفسها فقط في دائرة مؤلفاته الأدبية والفلسفية. وفي حالة عبثية يصعب تحديد ملامحها بوضوح.

وكانت إرادتنا هي محاولة لقراءة مواقفه في مسيرته الإبداعية من خلال بعض مؤلفاته التي نقدم جزءا منها في هذا المقال.

د. نواف أبوساري

كلية الآداب واللغات
جامعة قسنطينة1
الجزائر

Résumé

Cet article retrace modestement le parcours d'Albert Camus, son idéologie et ses principes, en ce qu'ils contiennent comme ambivalences et ambiguïtés, telles qu'elles transparaissent dans ses principales œuvres, mais aussi dans ses prises de positions publiques de français d'Algérie, telle celle par laquelle il déclame, alors que le combat anticolonialiste fait rage : "je crois en la justice mais je choisis la mère patrie".

مقدمة

مولده ونشأته

ولد البير كامي في السّابع من شهرنوفمبر" تشرين ثاني" 1913م في مدينة "مندوفي" "Mondovi" وقد أطلق عليها هذا الاسم خلال الحقبة الاستعماريّة، أنها مدينة "الذرعان" الجزائريّة، لأب فرنسي كان يعمل في مصنع لاستخرج النّبيذ، وهو ينتمي إلى أسرة يعود أصلها إلى منطقة الألزاس المتاخمة للحدود الجغرافية الفرنسية الألمانية شرقا . نزحت إلى الجزائر في عام 1871م أيّام حكم ملك فرنسا نابليون الثّالث. (أمّا أمه ؛ فكانت من أصل اسباني، من جزر المايورقا). (1)

وعندما اندلعت الحرب العالميّة الأولى 1914 م، لم يكن قد أكمل عامه الأوّل. واشترك

© جامعة قسنطينة 1، الجزائر 2012.

أبوه في هذه الحرب، وجرح في معركة المارن، ثمّ مات في المستشفى فيما بعد. وبذلك أصبح الطّفل يتيما. وقد عبّر عن ذلك في كتابه الّذي صدر بعنوان*الصّيف* وذلك حين قال: (نشأ كل من هم في سنّي على طبول الحرب. ولم يتوقّف تاريخنا منذ ذلك الحين عن أن يكون؛ سلسلة من القتل والظّلم والعنف). (2)

وبعد موت أبيه، انتقلت أمّه إلى مدينة الجزائر، حيث أقامت في حي بلكور الشّعبي في شقّة من غرفتين. كانت تضمّ شمل الأسرة المكوّنة من أمّه وأخيه لوسيان، وخاله المصاب بعاهة، وجدّته المتسلّطة.

كانت الأم تعمل في مصنع للبارود، ثم عملت بعد ذلك في خدمة المنازل. وهكذا عرف الغلام البؤس والفقر والحرمان. كما أصيب عام 1920م بمرض السّلّ ، وبالرّغم من أصوله الفرنسيّة فانّه لم يكن ينتمي الى الصّفوة المحظوظة من المستوطنين الفرنسيين المستمتعين بالثّراء والسّلطة في الجزائر .

بل كان غريبا عنهم بحكم الفقر والحاجة . ولذلك لم يكن من الغريب أن يثور البير كامو ويناضل من أجل الحرّية والعدالة .فهو يقول في الجزء الأوّل من كتابه * الوقائع الرّاهنة *:(انّي لم أتعلّم الحرية من كتب ماركس...الحق اني تعلمتها من الفقر). (3)

وعندما اندلعت الحرب العلميّة الثانية 1939م حال المرض بينه وبين الالتحاق بالجيش، ولكنّه غادر الجزائر الى باريس Paris وذلك قبل الغزو الألماني لفرنسا . ثمّ انتقل بعد هذا الغزو إلى مدينة كليرموفيراند Clermont – Ferrand، ثمّ الى مدينة ليون Lyon حيث استقرّ به المقام هناك حتى عام 1941 م ، ثمّ رحل إلى مدينة وهران بالجزائر. ولمّا اشتدّ عليه المرض عاد للاستشفاء من حيث أتى.

لقد حالت ظروف الحرب بيه وبين العودة إلى الجزائر الاّ بعد أن تمّ تحرير فرنسا الألمان .وبقي طوال هذه المدّة بعيدا عن أسرته .

ولم يكن المرض يريحه بصفة نهائيّة، بل كان يعاوده ويشتدّ عليه بين الحين والآخر، فيضطرّه ذلك إلى التزام الرّاحة والعلاج . وكانتا صحّته على وجه العموم سيّئة ، خاصّة في السّنتين السّابقتين لوفاته.

واذا كان الرّجل قد تخلّص من الفقر، وابتعد عن الحاجة عندما بلغ سنّ الرّشد، وابتسمت له الحياة فانّه عانى من المرض عناء شديدا. جعل حياته ذات مذاق مرّ .

وفي عام 1957م نال جائزة نوبل في الأدب . وكان أصغر من نال هذه الجائزة من بين طلائع الأمة الفرنسيّة في الأدب. وفي شهر كانون ثاني" يناير" لقي البير كامو حتفه في حادث سيّارة مأساوي على الطّريق العام عام 1960 م.

نشأته التّعليميّة :

تلقى البير كامو تعليمه الابتدائي بمدرسة الحي في مسقط رأسه ، ثمّ واصل تعليمه العام بالثّانويّة الفرنسيّة بمدينة الجزائر ، وذلك ما بين 1922 م – 1930 م .

وقد ظهرت ميوله الأدبيّة في سنّ مبكّرة. فانكبّ على قراءة كتب كبار الأدباء بنهم شديد، من أمثال: أندري جيد André Gide وليون تولستوي نيكولافيتش Leon Tolstoi وبلزاك Balzac ونيتشة Nietzsche ومالرو Marleau .

وفي عام1933 صدر كتاب (الجزائر) لأستاذهجانجرينييه .ويحتوي هذا الكتاب على سلسلة من المقالات القصيرة الّتي تتعرّض لمشاكل الحياة في عالم لا يخلو من طابع السّخرية . وكانت هذه المقالات تتّسم بلهجة الشّك الخطيرة، جعلت من جرينييه أحد أساتذة الفكر الّذين تأثّر بهم كامو تأثرا شديدا. وقد واصل البير كامو دراساته الفلسفية بكلّيّة الآداب بجامعة الجزائر، وانتهى منها عام 1933 . حصل على إجازة الدّراسات العليا برسالته الّتي قدّمها عن (العلاقات بين الهيلينيّة والمسيحيّة عند أفلوطين والقدّيس أوغسطينوس). (4)

كان البير كامو متعدّد المواهب، فقد ألّف روايات ومسرحيّات وكتب كثيرا من المقالات الأدبيّة، والسّياسيّة، والاجتماعيّة، والمسرحيّات، واعمل في التّمثيل في فرقة إذاعة الجزائرالمسرحيّة في حينه . ثمّ أسّس * مسرح العمل * ، وعمل في الميدان الصّحافي ممّا أكسبه شهرة إضافية .

نشاطه السّياسي :

عندما استولى هتلر المستشار الألماني على السّلطة في بلاده عام 1933 ، اشترك هذا الأديب في الحركة المناهضة للنازيّة. وفي عام 1934 سحر بالأهداف الاجتماعيّة والإنسانية التي نادت بها الشّيوعيّة فانضّم إلى الحزب الشّيوعي، وما لبث أن انفصل عنه بعد ثلاثة أعوام . ولمّا احتلّت فرنسا من قبل الألمان اشترك في حركة المقاومة الفرنسيّة لتحرير بلاده من الجارة النّازيّة ألمانيا وكان ذلك ابّان الحرب العالميّة الثّانية .

وعندما ألقيت القنبلة الذّرية الأولى في تاريخ البشريّة والحروب الكونيّة على مدينة هيروشيما اليابانيّة أعلن سخطه حين قال : (إن الحضارة الآليّة قد وصلت إلى أعلى درجات الوحشيّة). (5)

وعندما اندلعت ثورة الشّعب في المستعمرة الفرنسيّة مدغشقر، أعلن احتجاجه الشّديد من مسائل القمع الرّهيبة الّتي مارسها الفرنسيّون ضدّ أبناء هذا الشّعب المسالم المطالب بحرّيته .

وفي 22 كانون ثاني " يناير"1956 وجّه نداء قي خضمّ ثورة التّحرير الجزائريّة، دعا فيه الى هدنة، ولكنّه قوبل مقابلة عدائيّة سيّئة من عدد من مواطنيه الفرنسيين ، فعاد الى بلاده وهو يقول :(انّي عائد من الجزائر يائسا الى حدّ ما، انّ ما يجري هنا يؤكّد اقتناعي بأنّه مصيبة تمسّني شخصيّا). (6)

وفي شهر شباط * فبراير* من العام نفسه تدخّل كامو لصالح عدد من الثّوار الأحرار والقوميين الجزائريين المقبوض عليهم دون جدوى. وعندما اشتعلت ثورة

المجر ضدّ هيمنة الاتّحاد السّوفياتي في نفس العام اشترك في اجتماع للاحتجاج على الطّريقة التي قمعت بها ثورة هذا الشّعب .

مؤلفاته أنشطته الأدبيّة

بدأ حياته الأدبيّة بتأليف كتاب *الظهر والوجه*. ألّفه أثناء دراسته للفلسفة بجامعة الجزائر رغم أنّه كان يمرّ آن ذاك في مرحلة عصيبة من المرض، الاّ أنّه كتب خلالها أيضا :*حفلات العرس* ، وقَصّة* الموت السّعيد* .

وفي عام 1938 كتب أولى مسرحيّاته *كاليجولا* الّذي يظهر فيها الامبرطور الرّوماني القديم ، شكلا بلا مضمون ، واسما على غير مسمّى .

لقد صدم هذا بموت أخته الّتي يحبّها صدمة قويّة، أثّرت على تفكيره، وعلى وجهة نظره في الحياة تأثيرا خطيرا.فاكتشف أنّ العالم على حالته هذه غير مرض ، فالناس يموتون وهم ليسوا سعداء . فهو يفكّر في البحث عن المطلق (7) . انّه يبحث عن المستحيل ، ويفكّر في الحصول على القمر ، وذلك حين يناجيه :

لا لست مجنونا بل لم يسبق أن تمتّعت بقواي العقليّة كما أتمتّع بها الآن كلّ ما هناك أنّني شعرت فجأة برغبة في المستحيل، فالأشياء المألوفة والممكنة لم تعد تقنعني بأيّ حال من الأحوال. انّ العالم على ما هو عليه لا يطاق .

لقد تملّكت * كاليجولا * رغبة التّمرّد المطلق ، فقرّر أن يستغلّ السّلطة الّتي يتمتّع بها بلا حدود حتّى النّهاية فاندفع يقتل ويحطّم كلّ شئ ويرفض الصّداقة والخير والتّضامن الانساني . لكنّه يدرك أخيرا أنه ضلّ السّبيل فقال : (لم أسلك السبيل الّذي يجب أن أسلكه ، انّني لا أصل الى شئ . انّ حرّيّتي ليست هي الحرّية السّليمة). (8)

إن تجربة اللاّمعقول أو العبث عند البير كامو لا تقرّر قاعدة للفعل أو السّلوك لذلك فهو مؤمن بالتّمرّد الّي يمكّنه من تخطّي المعقول ، لأنّه تمرّد ميتافيزيقي ، بمعنى أنه يناقش مصير الانسان والعالم .

وفكرة التمرّد هذه تظهر بصورة هدّامة في مسرحيّته السّابقة الذّكر. هذه المسرحيّة الّتي مثّلت على خشبة المسرح عام 1945 .

وهناك مسرحيّة * سوء تفاهم * الّتي مثّلت قبلها بعامين ، ولكن التّمرّد يبدو بعد ذلك بصورة أكثر ايجابيّة في مسرحيّته * حالة حصار * الّتي مثّلتعام 1948، وكانت مسرحيّته *العادلون* قد عرضت قبلها عام 1945.

ولمّا غادر الجزائر إلى فرنسا خلال الحرب العالميّة الثانية مضطّرا بسبب ما كان يعانيه من مضايقات جاءته من الهيئات السّياسيّة الفرنسيّة الرّسميّة بشأن مقالاته ، بدأ العمل في جريدة *باري سوار* paris soir وهناك أنهى روايته*الغريب* في شهر أيّار *مايو* 1940. وفي أيلول*سبتمبر* كتب الجزء الأوّل من * أسطورة سيزيف * (9) التي أكمل فصولها في شهر شباط * فبراير* من العام التّالي.

أنها أسطورة إغريقية تحكم فيها الآلهة على * سيزيف * بأن يحمل حجرا ثقيلا ، ويصعد فيه إلى قمّة الجبل، وقبل أن يصل إلى قمّته الحجر من بين يديه إلى سفح الجبل ، فيضطّرّ إلى النزول إلى الأرض ليلتقطه من جديد، ويصعد به إلى قمّة الجبل مرّة أخرى. وتتكرّر المأساة ثانية فيسقط منه الحجر مرّة أخرى. وهكذا يظلّ *سيزيف* صاعدا وهابطا إلى ما لا نهاية دون أن يتمكّن من أن يصل إلى قمّة الجبل .

وقد كانت هذه الرّواية أوّل اعلان من الأديب عن عبثيّة الحياة الّتي يتعب فيها الإنسان، ويكدّ ويكافح ويجاهد ،لتحقيق هدفه ، ولكن دون جدوى .

وفي عام 1941 أعدّ قصّة *الطّاعون* متأثّرا بقصّة *موبي ديك* للكاتب الأمريكي** هيرمان ملفيل** .وقد ذكر الكاتب أنّ هذه القصّة من أكثر الأساطير إثارة فيما يتعلّق بكفاح الإنسان ضدّ الشّر .

وفي عام 1944 قابل الفيلسوف الوجودي **جان بول سارتر** الاّ أنّه تبرّأ من الانتماء إلى المذهب الوجودي كما ذكر :(لا ... لست وجوديّا انّنا ندهش أنا وسارتر اذ نرى اسمينا متلازمين ، انّنا نشرنا كتبنا جميعها ، قبل أن نتعارف ، وعندما تعارفنا ، كان ذلك لكي نتبين ما بيننا من اختلافات. إن سارتر وجودي. وكتابي الوحيد الذي نشر وفيه أفكاري هو كتاب * أسطورة سيزيف* كان موجها ضد الفلاسفة الذين ينعتون بالوجودية). (10)

وسوف نرى تدريجيا عبر أسئلة نوجهها إلى الغائب الحاضر من خلال ما طرحه من أفكار، ومواقف حسبت له أوعليه.

- هل استطاع البير كامو أن تكون مواقفه ، منسجمة مع أحلامه وأيدلوجيته ؟ .
- هل قدم هذا الأديب الفرنسي الأصل الجزائري المولد لمسقط رأسه ما أمله منه طلاب الحرية ؟
- ما هي أسباب تنصله من مناصرة الثورة الجزائرية. وما هي أسباب التزامه بأهداف أمه فرنسا ؟
- ما هي أسباب سكوته عما تفعله هذه الأم من سفك للدماء ؟
- لماذا تنكر البير كامو للتطلعات الإنسانية المحيطة به ؟في مؤلفاته ونادى محتجا غاضبا على ممارسات وحشية في أكثر من موقع ؟ ومامعنى التمرد إن لم يكن ضد الظالم الذي يعاني منه المظلوم من القهر والعدوانية ؟ الظالم الذي طغى وبغى على أمة نادت تطالب بالحرية بشجاعة وشرف تلك التي دافع عنها وأدانها جهارا نهارا ؟ وتحدى بواسطتها قدرات الإنسان وحقه في التعبير الحر ومقاومة الظالم على ظلمه ؟ولكن في مواقع أخرى .
- أم أن الكيل بمكيالين أمر مشروع حين يتعلق الأمر بالانتماء العرقي وهضم حقوق الآخرين؟

واستمر في نشاطاته فزار البير كاموعام 1946 الولايات المتحدة الأمريكية. وهناك احتفى به الشباب الأمريكي احتفاء يليق به، وخاصة طلاب الجامعات. واستطاع في هذا العام الانتهاء من كتابة_الإنسانالمتمرد– الذي أثار جدلا واسعا بين الأوساط السياسية والثقافية في حينه .

وخلال هذه الفترة الزمنية قطع علاقته نهائيا مع-جان بول سارتر–وكان ذلك عام 1952 .واستمر متأزما في حياته الصحية حتى عام 1954. دون أن يقوم بأي نشاط أدبي أو سياسي ما عدا توسطه الإفراج عن سبعة مواطنين تونسيين حكم عليهم أبناء جلدته من المستعمرين الفرنسيين بالإعدام.

ولكن دور النشر نشرت له بعض أعماله القديمة تحت عنوان –الصيف – وفي عام 1956 نشر هذا الأديب رواية – السقطة– وبعدها بعام صدرت له مجموعة بعنوان – المنفى والمملكة – (11)

مؤلفات وأعمال البير كامو وفق تاريخ ظهورها , ومكان طباعتها :

- مسرحية ثورة في جبال الاستوريا، تمرد الاستوري، شارلو، الجزائر، 1936

- على الوجه و بالمقلوب– أو وجها الحياة (الوجه والقفا) 1938 (12) نقل خلاله صراعه مع المرض والفقر ، كما صور فيه الأفكار التي كانت تجول بخاطره آنذاك.

- لموت السعيد .. كتبها عام 1938 ، ولكنها لم تنشر الا بعد وفاته .1971 .

- أعراس ، شارلو – الجزائر ، 1938

- الغريب – غاليمار – 1942 (13) الذي صور فيه غربته عن العالم و الأشياء التي تحيط به مما أفقده طعم الحياة ، حين انتهى به الامر في السجن ، جراء جريمة لم يرتكبها . لكنه للأسف لم يبال ، وتقبل الحكم بأعصاب باردة .

- أسطورة سيزيف – غاليمار – 1942 .

- مسرحية - سوء تفاهم – غاليمار 1944

- كاليجولا – غاليمار – 1944 .

- مقدمة كتاب –حكم ونوادر – لشانتور – بوان دي جور 19440

- رسائل الى صديقي المالي –غاليمار -1945 .

- الطاعون – غاليمار – 1947

- الحصار – غاليمار -1948 .

- محليات ' الجزء الأول : ومقالات 1944- 1948– غاليمار 1950
- العادلون - غاليمار 1950
- الإنسان المتمرد – غاليمار 1951 .
- محليات الجزء الثاني – ومقالات من 1948 – 1953 غاليمار 1953 .
- التبتل للصليب ، عن كالديرون – غاليمار 1953 .
- الأرواح ، عن بيار دي بواديفير 1953
- المرة الزانية - طبعة الإمبراطورية – الجزائر 1954 .
- الصيف – غاليمار 1953 .
- الفن – دويتول1955
- حالة طارئة عن دينو بوزايتي 1955 .
- مقدمة لمؤلفات – مارتان دي غار الكاملة –لابلياد – غاليمار 1956 .
- السقطة ، غاليمار - 1956 .
- صلاة إلى بتول ، أو جنازة لراهبة ، عن فوكنر، غاليمار ، 1956 .
- جائزة نوبل للآداب - خطاب المدينة أو خطاب ستوكهولم، أو خطاب من السويد 1957 .
- فارس أو لميدو ، عن لوب دي فيغ ، غاليمار 1957 .
- المنفى والملكوت – غاليمار، 1957 .وهي مجموعة تضم بين دفتيها عدة قصص منها : المرأة الزانية والضيف وغيرها .
- محليات الجزء الثالث من 1939 – 1953 – غاليمار ، 1958 .
- المسوسون ، عن ديستوفسكي ، غاليمار 1959 .
- موت كامو :البير كامو.....الموت السعيد .....ولم تنشر إلا بعد وفاته كما ذكرنا 1960.

قراءة مختارة ورأي وتعليق مختصر في بعض مؤلفات البير كامو... :

الإنسـان المتمـرد

أثار هذا المؤلف حفيظة وغضب الأديب الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر. وقد عبر كامو خلاله: أن الإنسان يتمرد حين تدفعه الظروف المحيطة به إلى درجة عدم

القدرة على احتمال ما يراه من ظلم وجبروت في حق الآخرين ويقف عاجزا عن فعل شئ ما للدفاع عنهم مما يدفعه الى التمرد دون النظر إلى العواقب، ويجد ان لا يمكنه قبول الوضع السائد أمامه ، مما يصعب عليه أن يتحمل أكثر من ذلك ، فيجبر على التمرد من محاولة استمرار مسيرته مهما كانت صعابها.

مسرحية كـاليجـولا :

تحدثنا عنها قبل ذلك، ولكننا نضيف إلى ما ذكرنا:" أن هذه المسرحية هي أشهر مسرحياته. كتبها في صباه ، فكليجولا لم يستقر له رأي في حياته وكل الأمور لديه سيان إلى أن تصل درجة التشاؤم عنده إلى فقدان المتعة في كل شئ. ويتساوى في نظره الظلم مع العدل والحياة مع الموت. وان ما يستوقفنا في هذه المسرحية، هي النظرة التشاؤمية التي طبعت أحداثها" . (14)

وهي نفس النظرة الموجودة في أغلب أعمال هذا الأديب. وهو الأمر الذي دفعنا الى التساؤل: هل الطابع العام الذي طبعت به شخصيات أعماله التشاؤمية أمر عفوي أم أمر يعبر عن دواخل المؤلف وذاتيته القلقة؟.

إنالإجابة عن هذا السؤال تتطلب منا نظرة موضوعية لأشخاص كامو في أعماله، والأحداث التي وضعهم فيها، فإجراءإحصاء تطبيقي بسيط على مسيرة أبطال أعماله من روايات أو مسرحيات أو مقالات أو مؤلفات خارج هذا النطاق ، نجد أن توظيف الأحداث التي عاشها في حياته الذاتية، من أماكن ..ومن فقر ..ومن مرض ومن تناقض في المواقف ..وعدم القدرة على متابعة مواقفه الإنسانية والخضوع الإكراهي لأصوله وولاآته، وعدم قدرته على المواجهة والتصادم ولد لديه إحساس بالتراجع المر عن كثير من القضايا فتولد عنده انقباض نفسي حاد سكن داخله وانعكس بالضرورة على مسيرة أبطاله الفنية. أولئك الذين لم يكونوا إلا هو. وإلا كيف نفسر مرة أخرى استمرارية وديمومة هذا السلوك التقليدي في أغلب ابداعاته الأدبية بصفة خاصة ان لم يكن يعبر عن دواخله المكبوتة؟

ولعل هناك من ينكر هذا الأمر، وفي هذه الحالة يمكننا القول: على اعتبار أن هذا التشابه يمكن أن يقع صدفة ويدخل في باب محض صدفة وانتهى الأمر. الا أننا نود أن نؤكد أن الصدفة اذا تكررت أصبحت عادة واذا استمرت في التكرار أصبحت مقصودة. وهو أمر متفق عليه تراثيا ونقديا .

الطاعـون:

هو ذلك الوباء الذي حل بالمدينة، ودمر حياة الناس فيها. ونشر في ربوعها حالات من الفزع والهلع جراء سطوته عليهم وتدمير حياتهم . انه مصيبة بكل المقاييس .

إن كامو قد أراد أو سعى للحديث عن صفة كامنة في الإنسان. وهي قوة الإرادة والعزيمة، التي يمكنه من خلالهما التغلب على عشوائية الحياة، ويكون صموده الطريق الذي يقوده الى السعادة بعد المحنة.

وعن هذه الرواية يقول تريشيه : هناكغياب شبه تام للمرأة. أما النساء التي ذكرت أسماؤهن في هذا العمل لم يكن لديهن أي دور في تحريك الأحداث. هي شخصيات صامتة إن أمكن القول ذلك. مما جعل بعض النقاد يحكمون على الرواية بأنها رواية رجولية لقد أراد كامو أن يصور اختناق المدينة بالطاعون كاختناق العالم بلا نساء، وحاجة الطفل لأمه، والرجل للمرأة . فغياب هذه الأخيرة معضلة تجعل من الكون عالما لا يطاق . يصعب أن تكون الحياة فيه سهلة، وهي الرواية التي انتزع بها جائزة نوبل. (15)

وهي ألهمته خطابه الذي يعرف ب – خطاب استوكهولم- وفيه قال : "إن كل جيل دون شك يعتقد أن مهمته هي إعادة بناء العالم، ولكن جيلنا يعرف انه لا يستطيع فعل ذلك، ولكن ربما كانت مهمته أكبر من ذلك .... انه يعمل على منع العالم من التعفن". (16)

من الملاحظ بوضوح أن كامو هنا: يطرح وجهة نظر بناءة تحاول تأسيس منهجية إنسانية سلمية تعم ربوع العالم الذي نعيشه. فهو لم يكن يرمي من وراء ما يقول: أن واجب الأفراد أمام محن مجتمعاتهم هو محاولة إعادة بناء تلك المجتمعات ودفعها نحو الرقي والتقدم. مما ينتج عنه عالم أكثر تحضرا وسلما وتعايشا ووئاما فقط.

بل نستطيع كشف ما يريد حين يستأنف، ما ذهب اليه في مصارحته أن مهمة جيله مهمة صعبة، إن لم تكن معقدة فهو يرمي هادفا توضيح الظروف البغيضة التي يحياها عالمه المعيش ليس مايعنيه ينحصر في الجوع أو الحرمان أو التشرد، بل كان ما يعنيعه يقينا أنالمعضلة تبدو لديه أخطر من كل ما ذكرنا . فهي بنظره بحاجة الى جهد وتساند مشترك وصادق من جميع أبناء المعمورة ومن حقائق الوقائع الحياتية لمنع العالم من التعفن . لكامو أنه كان يعيش في زمن عم فيه الخراب والدمار ربوع العالم الذي يحبه والعبثية الأخلاقية السائدة على المستوى السياسي والأخلاقي والحربي والاستئصالي حيث الكبير يحطم أحلام الصغار والقوي يستغل الضعاف، ويهدم بقايا بيوتهم على رؤوسهم، ويكتسحهم من عالم الوجود ثم ينفي إنسانيتهم. ومما جعله أو أثر بطرحه هذا أن ظهور ما عرف بالفلسفة الوجودية عند معاصره الأديب الفرنسي - جان بول سارتر—ومنهج العبثية عنده، مع عبثية الأديب الايرلندي – صموئيل بيكت - بالإضافةإلى منهجه المعرفي قد ساعده كل ذلك محاولة إيجاد صياغة إصلاحية تنقل الأحداث السائدة في عالمه الذي يراه ذاهب الى الفوضى . فهو يحاول أن يشير أن العالم بحاجة إلى عملية إصلاحية بطرح حلولا موضوعية لعلاجها.

وبنظره أنه نادرا ما نجد أن الدمار يسود المحيط والعالم ، ويأتي أديب أو مصلح ويتخلى عن انسانيته فيتحدث عن السعادة والرفاهية ، والسلوى والمتعة، في نفس

الوقت الذي تكون الاحداث فيهما قاتلة . ان حالات كهذه تجعل منه شخصا منفصلا أما أن يكون في غيبوبة أخلاقية أو خيانة لبني انسانيته علاوة على بني أمته .

وهو الامر الذي يعرضه ليس للانتقاد فقط بل يعرضه لتهمة الخيانة. لأن الانسان دوما بحاجة لمن يأخذ بيده، ويفضح الظلم والظالمين الذين تغاضوا عن نصرة قضيته. ويعتبر هذا الموقف من مواقف الاستغفال والضحك والاستهزاء ببني البشر.

روايـة الغريـب :

لا بد بادئ ذي بدء من الإشارة المختصرة إلى منهج البير كامو الذي نهجه خلال مشواره الإبداعي الثري .ولا يسعنا إلا أن نذكر أنه كان منهجا عبثيا رجع إلى حياة متناقضة بين واقعين – حيث أن الشهوة المستعرة في باطن الإنسان تطلب الفهم والمعرفة ، وبين الكون الصامت الذي يأبى البوح بسره والوجود الذي يرفض الانطواء تحت قانون شامل يرضى به العقل ، ومنبع الشعور بالعبث. هو هذا التصادم بين شهوة العقل. (17)

إن هذا الأديب الذي نقرأ له يدعو إلى التمرد المتواصل، والتشبث الدائم ، بالقيم والكرامة الإنسانية.حيث أن ظاهر الأمور تجعلنا نعتقد ذلك، رغم تحفظنا عن حقيقتها التي تعنينا مباشرة، وتدمي قلوبنا. والأمرراجع إلى تلك التصريحات القاتلة المنسوبة للأديب في مواقفه من الثورة الجزائرية التي يمكننا الحديث عنها في موقعها من هذه القراءة.

وبكل موضوعية وشفافية فان البيركامو قد صور في هذه الرواية الشخصية العربية الجزائرية في أوج الحرب العالمية الثانية حين كان أبناء الجزائر يضحون بأنفسهم دفاعا عن فرنسا التي كانت ترزح تحت القبضة الحديدية لجيش الاحتلال الألماني. يصور هذه الشخصية بأنها صورة منفرة تظهر من بعيد صماء صامتة. فهي لا تقدم لا الأسماء ولا الصور الشخصية ، ولا حق الحوار لهذه الشخوص لتعبر عن أحلامها ووجودها المسلوب.

فهولم يمنحها مواضع خطاب ، بل كان يمييعها حين لا يشير إلىأسمائها ويكتفي بجماعة من العرب. وأحيانا يشير إلى أحد أفردها بالعربي الآخر .أو العربي الذي كان مسلحا . أو العربي الذي أراد ضرب ريمون. لقد أظهرهم كأناس أو كجماعة من الخصوم تطارد مارسو وزملائه من مكان لآخر .

ويعود السبب في ذلك كما جاء في الرواية: هو اعتداء مارسو على امرأة عربية كما ذكر المؤلف ... مدعيا أنها كانت خليلته. وقد تشاجر هذا مع أخيها مرات عدة. مما أدى إلى ملاحقته ومطاردته من جماعة من العرب للانتقام منه . ونلمس في الرواية بوضوح نظرته الاستعلائية فيصورهم مجموعة من الهمج لا حياة ولا روح فيهم . يصورهم وكأنهم أشياء جامدة ميتة كالحجارة ، بل أحقر من ذلك ، وعلى الرغم من أنه لم يصفهم بتلك الصفات مباشرة، إلا أن هذا يتضح من خلال سياق الحديث وطريقة

الكتابة والتصوير ونكران حقيقة وجودهم بالقول : أنه علم أنهم عرب من خلال لباسهم .

إنطريقة الطرح الأسلوبي بهذه الطريق يوحي مباشرة إلى نوع من التمييز العنصري، وعدم احترام الآخر،وتهميش لأهميته، واستصغار لشأنه، وعاداته واحتقار لمبادئه وتقاليده .

ونجد من خلال البناء الفني لسير الأحداث في الرواية أن بطلها مارسو في دفاعه عن أبناء جلدته من جماعة الأوروبيين ضد مجتمع الأهالي. قد قام بقتل العربي بدم بارد حين كان ممددا على في حالة ضعيفة مهانة.

ويبلغ الحقد مداه، حين يتجاوز حدود الانتقام اى ذروة السادي المقيت المتمثل في إطلاق أربع رصاصات أخرى على جسم العربي لتأكد من موته بعد موته.

تظهر الصورة العامة في هذا المشهد الذي تنافس فيه العمل الروائي مع الحركة التمثيلية المسرحية في أوج تفاعل الحدث ، على رمال الشاطئ واضحة دالة فنحن نراها هكذا : شاطئ رملي لامع، وحرارة شمس حارقة وبطل الرواية الفرنسي يحمل مسدسه ،وفي الواجهة الأخرى، عربي يحمل سكينا . تمنح الأول حجة إطلاق النار عليه لترديه قتيلا. تشهد هذه الصورة على قمة التعفن الأخلاقي، والتهور والحقد الدفين المستمر مع وجود المستعمر على أرض الجزائر العربية.

كيف يمكننا أن نهضم هذه الصورة التي يرفضها قطعا عقل الكائن البشري مهما بلغت القسوة عنده وذابت الروح الإنسانية بين أضلاعه؟ .

كيف نفسرها ؟ ماذا أراد الأديب أن يخبرنا عن هذه الصورة التي خطها بيده ؟

هل كانت أرواح أبناء الأمة رخيصة إلى هذه الدرجة من التنكيل عبر هذه الصورة الانتقامية وغيرها من الصور الكثيرة؟تلك الصور التي نثرها عبر كتاباته.

إن ماسو لم يقتل العربي فقط بل أراد أن يمعن في قتله بعد أن قتله انه خائف منه وهو ميت طريح رمال الشاطئ . وهي حالة نفسية متوترة حقودة يريد أن يقتله عدة مرات جراء الحقد الحيواني الذي يحمله بين أضلعه على كل ما عربي، ولعلها تدخل في باب التطهير العرقي ....تخلصوا من العرب عن طريق التأكد من الفناء.

تعبر هذه الصورة بوضوح عن حالة فرنسا الاستعمارية وما فعلته من جرائم ضد الإنسانية بأبناء الشعب الجزائري. إنها كانت تستهين بأرواح أبناء هذا الشعب المسالم الذي أبى الضيم تاريخا وسيرة .

وهي تنقل صورة أخرى تبين نوعية السلاح الذي كان يحمله ماسو وهو سلاح مدمر حديث ، وفي الجانب الآخر وسيلة تقليدية عاجزة لا تستطيع أن تواجه حداثة السلاح المشهر في وجه العربي . وهي تعبر كذلك عن شراسة وطغيان المعمرين الذين تجردوا من إنسانيتهم،وتنقل الصورة أيضا إرادة العربي الذي يحمل السكين للدفاع عن شرفه

وعرضه غير مبال بالنتائج التي لن تكون لصالحه. ولكن السكين تحمل في طياتها سلاحا شرفيا تقليديا يحمله العربي معه لقضاء كثير من الحاجات التقليدية العادية.

وهناك صورة أخرى يمكننا إدراجها هنا وهي: تنقل صورة ماسو عندما يدخل السجن. فيفاجأ بعدد كثير من الجزائريين في أول غرفة يصادفها حيث يجدها مكتظة بالمواطنين العرب.

إن هذه الصورة قد نقلها بطريقة فاضحة لأؤلئك السجانين الغرباء ففرانتس فانون*في كتابه – معذبو الأرض --جاء تصويره ذاك عن الحالة المرضية التي صادفها خلال أداء مهمته كطبيب . وهي أن صبيين جزائريين صغيرين قاما بقتل رفيقهما الأوروبي في اللعب . وقد قتلاه انتقاما من الفرنسيين وعلى حد تعبيرهما: "إن آلاف الجزائريين يقتلون يوميا على أيدي الفرنسيين، لا لأحد من هؤلاء القتلة في السجن، على عكس الجزائريين الذين يملأؤون السجون دون أي ذنب أو أمر ارتكبوه". (18)

لقد صور كامو العرب في روايته على أنهم جماعات مجرمة خارجة عن القانون وهذا مارسو يقول عنهم : " بعد أن قبضوا علي، كانوا قد وضعوني في غرفة بها الكثير من الموقوفين، أغلبهم من العرب" .(19)

كما أنه صور العرب ضعاف الشخصية سطحيين بسطاء، إنهم في الحقيقة طيبون رحماء إلا أنه ذكرهم بقوله:"وقد ضحكوا حين رأوني بينهم، ثم سألوني عما فعلته فقلت: إنني قتلت واحدا من العرب ، فصمتوا لفترة ولكن فيما بعد عندما حل المساء – شرحوا لي كيف أصنع الحصيرة التي سأنام عليها". (20)

إن الصورة التي رسمها الأديب قبل ذلك تتنافى مع الصورة الجديدة التي فرضت نفسها عليه، وهي أن العربي مهما كان الظلم الذي يعانيه من ظالمه إلا أنه لايمكنه أن يتخلى عن مبادئه الإنسانية والأخلاقية و إلاكيف نفسر حوار ماسو مع الموقوفين الذين لم تصدر بحقهم أحكام بعد ، أنه قتل عربيا مع مجموعة كبيرة العدد من العرب ويتركونه يخر ج من بينهم سالما ، بل بالعكس علموه كيف يصنع حصيرة لينام عليها إن هذه الصورة وتداعياتها الأخلاقية تمثل قمة التعايش الإنساني الذي فقده الآخر الماثل أمامهم.

ومن الجدير ذكره هنا أن الشخصيات التي حركت الأحداث في الرواية كانت صماء غير متفاعلة صامتة وضبابية لم ((يكن لها دور مستمر في صناعة الأحداث فهي مطبوعة بصفة مهمشة تكتنفها مسحة من التجاهل والإهمال فلا شخصياتهم ظهرت ولا أصواتهم سمعت للتعبير عن حالهم، فهم حاضرون غائبون لا ينطقون، وليس لهم أسماء)) (21) الأمر الذي نجده في الشخصيات العربية على عكس الشخصيات الفرنسية.

لقد تحدث كامو عن العرب في هذه الرواية باستعلاء وكبر وعنجهية واحتقار. من ذلك حين تذهب ماري لزيارة ماسو في السجن، وفي صالة المقابلة وقف إلى جانب عشرة من الموقفين العرب، وفي نفس الوقت تظهر منه نظرات الاستعلاء والاحتقار والتجاهل وذلك حين استعمل لغة دالة على ذلك.منها مثلا : "كان أغلبهم من العرب ...وكانت ماري محاطة بالمغاربة " . (22)

إن توظيفه لكلمتي : "أغلبهم"و"محاطة" لهما دلالتان يخفيان شيئا من التحقير للعرب أو لهؤلاء الكثرة الذين لا أهمية ولا شأن لهم. وهو الأمر الذي يرفع من سقف القناعة بأن نظرته لهم كانت نظرة استعلائية فيها اتهام واضح لهؤلاء الأبرياء بأنهم جماعات من المجرمين، بدلالة أن السجون مكتظة بهم، ولكثرتهم هم موقوفون بلا محاكمة ....ولقد بقيت هذه الصورة الضبابية التي يمكننا وصفها بالحاقدة الخاصة بالعرب مستمرة في السير السلبي مع الحدث، دون أن يسمح لها بصناعته، أو المشاركة في التفاعل مع أحداث الرواية، انه لم يذكر هوية معرفية لهم، هم بلا أسماء ، أي وجود بلا وجود دال عليهم . وهذا عكس شخصيات الرواية الأخرى , المتفاعلة مع الأحداث ومع البناء الفني لمعمار الرواية.

روايـة الطـاعون

جاءت بعد رواية الغريب وهي تبرز في الحقيقة عملا وجوديا رمزيا . حدد في كامو عبثية الوجود الإنساني، بل أبعد من ذلك ، حيث يمكننا القول بأنه قد حدد البعد الوجودي لفكره وأدبه. مما جعله يحاول إبراز ذلك في مؤلفه الأدبي هذا. وبناء على مفهومنا يكون الطاعون يمثل : فلسفته وإنسانية عبثيته.

تدور طبيعة أحداث هذه الرواية في مدينة وهران العربية. والأمر غير الطبيعي هو اختفاء الوجود العربي من أهل المدينة في العمل الروائي. فكل سكان المدينة كانوا من المستوطنين الفرنسيين أو الاسبانيين أو الايطاليين. ولم يسمح المؤلف لأهل وهران من المشاركة في العمل الروائي إلا في موضع أو موضعين وبطريقة سطحية.

واستنادا على ما توصلنا اليه من قراءة لهذه الرواية فان ذكره للعرب فيها كان مثلا: حين جاء الصحفي رامبير ريمون الى وهران لإجراء تحقيق حول الظروف المعيشية للعرب لصالح جريدة فرنسية، لجأ هذا إلىالدكتور ريو ليقدم له معلومات يحتاجها عن حالة أهل وهران الصحية." لكن التحقيق أقفل بمجرد أن ظهرت البوادر الأولى للوباء في المدينة. فنسي رامبير سبب وجوده هناك، ولم يتم ما بدأه، إنما قام بتغيير اهتمامه في نهاية الأمر إلى كتابة روبرتاج حول الجرذان الميتة في المدينة ". (23)

وفي صفحة أخرى يذكر فيها العرب بواقع سطحي سريع وذلك حين "يتحدث غران في حوار له مع بائعة التبغ ، تطرقت الى ذكر حادثة، اعتقال لعامل تجاري في الجزائر، كان قد قتل عربيا على أحد الشواطئ". (24)

وما دامت رواية الغريب قد جاءت قبل رواية الطاعون فان كامو قد نهج منهج تثبيت روايته الأولى مرجعا للثانية، لأن الإشارة هنا في الحديث السابق تعني الجريمة المروعة التي اقترفها ماسو في رواية الغريب.

لقد أنكر كامو أن مدينة وهران هي لأبنائها الجزائريين فنسبها إلى سكانها الفرنسيين والأسبانوللفرنسيين خصوصا فهيبنظره، وواقع الحال " أن وهران ليست أكثر من مقاطعة فرنسية على الشاطئ الجزائري ". (25)

لم يكن نكران أصحاب المدينة جملة عابرة، بل منهجية فكرية استئصاليه استعمارية من قبل المؤلف. عبرت هذه عن مكنونات نفسه، واستولت على جوامع تفكيره، من خلال ترديدها في مواقع عدة. فهو يستعمل نون الاختصاص المالكة للملكية،والناكرة هوية الآخر، وان كان هو صاحب الحقيقة وسيدها. والا كيف نفسرأقواله :" ولا ريب في أن يقول قائل إن هذا ليس خاصا بمدينتنا" (26) ، " لعل هذه الإشارة تعطي فكرة كافية عن مدينتنا ....على أن ما هو أكثر جدة وطرافة في مدينتنا " (27) ، و" كان الناس في مدينتنا يقدرونه كثيرا " (28) و" القضايا الدقيقة التي كانت تطرحها ادارة مدينتنا ". (29)

لقد تجـاهل الأديب الجزائريين تجاهلا تاما وأنكرهم ، وقيد حريتهم وجودا وحقيقة. وهو القائل: " ونحن دائما أحرار، ولكن على حساب الآخرين " (30) والحقيقة المرة التي لا يمكن هضمها أنه يتجاهل تماما أن وهران مدينة عربية جزائرية أرضا وبحرا وسماء وأنهم عابرون في كلام عابر. صور كامو أن وهران مدينة للمستوطنين الفرنسيين وغيرهم من الأجانب. وأنكر أصحاب الأرض وأظهر التخصيص في الملكية دائما بوضوح تام "البلبلة عندنا ليست معروفة، وأهل مدينتنا يثيرون دائما بصراحتهم وودهم وحيويتهم احتراما معقولا ".

إضافةإلى ذلك فان كامو لم يذكر أن فرنسا وأطباءها قد وجهوا مساعدات ما للمصابين بوباء الطاعون من العرب . إنما كان هم هؤلاء تقديم العناية الطبية للمستوطنين الأوروبيين من الفرنسيين والأسبان بصفة خاصة.

وعلينا أن نذكر هنا أن الفيلسوف الأديب جان بول سارتر قد ثار على الوضع اللاانساني الذي عانى منه العرب أمام الظلم المسلط على رقابهم من قبل من يدعون الحرية والمساواة ، وحقوق الإنسان وشاهدنا على ذلك: " أن شرطيا فرنسيا يدعى ماركي قد أطلق النار على العربي محمد دياب ، الذي كان بعيدا عنه مسافة خمسة أمتار فاصطاده الشرطي ليتسلى ، وعندما سئل عن سبب إطلاقه النار عليه ؟ أجاب بأنه لم يلتزم بالهدوء. وقد لفلفت السلطات الفرنسية المسألة واحتضنتها . وهنا قال ثائرا :" أن بعض الأيدلوجيات العنصرية المريضة التي قامت بها فرنسا ضد الجزائريين يجد ربها حذف كلمة مساواة من شعارها ". (31)

واستمرت المعاملة القهرية الاستبدادية ضد الشعب الجزائري على كافة المستويات فهذا الكاهن بانولو راعي الكنيسة ، لم يطلب مساعدة ما لأبناء هذا الشعب رغم أن مهمته دينية إنسانية، مما حدا بنفس الفيلسوف القول مرة أخرى : "إن العنصرية نشأت ونمت في فرنسا في الوقت الذي تصاعدت فيه حركة الاستعمار البرجوازية. وأن المستعمرين قد استغلوا ثروات المستعمرين وسلبوها من أهلها . وأنهم استغلوا سكان تلك المستعمرات استغلالا يتجاوز كل الحدود. وأن هؤلاء المستعمرين هم أدنى مرتبة من البسر. وأن العرب عانوا بشكل كبير من الظلم والتعسف الفرنسي، وعانوا من الرعب والتقتيل اليومي" . (32)

إن رواية الطاعون لألبير كامو ما هي إلا سجل للحقائق التاريخية لأنها صورت الظلم الذي فرضته فرنسا الاستعمارية على الشعب الجزائري .،فهل كان المؤلف يدرك مدى ظلامية هذا الظلم ؟ أم أنه وقع تحت طائلة الولاء لأمه فرنسا؟ . أم أنه أخذ برأي أمته التي كانت تعتقد أن الجزائر مستعمرة يمكن أن يعامل أبناؤها كما يحلو لجلاديها دون مساءلة قانونية أو أخلاقية أو وخز من ضمير؟ هل كان يعي كل ذلك وهو من بين الذين كانوا يؤيدون الحرية للشعوب المقهورة ؟ .

إن اجتمعت عناصر الإجابة بنعم فان مسؤوليته تكون أشد ظلما وخطورة. ونحن من ألئك الذين يعتقدون أنه مسؤول عما كتب وعلم . فهو في هذه الحالة مسؤوليته مباشرة وشريكة في الظلم وإنكارإنسانية المواطن العربي الجزائري .

أسطورة سيزيف

كنا قد تحدثنا باختصار عن مضمونها العام دون الدخول في تفاصيل كثيرة عن الرواية لأن أحداثها التفصيلية مجالها في مكان آخر. إلا أن هذه الرواية تحمل في طياتها صورا جميلة لمعاني قدسية الحياة. كان سيزف من أشد الفنانين حكمة وحصانة.يعيش في عالم تتحكم فيه الآلهة. وهو متهم بأنـه قاطع طريق، ورغم أن سيزيف فنان يتنافى تماما مع التهمة الموجهة له ، ولكنه رغم ذلك ينال العقاب . هي قضية منفصلة ما بين الواقع الذي يحياه الإنسان وبين التقاطع الذي تسيطر فيه الآلهة على تسيير شؤون الطبيعة البشرية .

إن هذه الآلهة تعيش في عالم المثل المستقل، ولا دراية ولا معرفة لها بنوازع النفس البشرية . وهي تصدر أحكاما مثالية، وتلزم المحكوم بها - رفع الصخرة إلى أعلى قمة الجبل - ولا تنتظر منه الرفض. وهنا تبدأ مأساة سيزيف ومعاناته .

إن هذه المعضلة هي التي أطلق عليها البير كامو "الوعي" الرفض الذي عد حسبه السبب الرئيسي في التمرد. فكان البطل اللامجدي مضطرا للتعبير عن عواطفه بقدر ما يمكنه التعبير عن عذاباته ، واعتذاره للآلهة . وهي الحالة الطبيعية التي تجعله كارها للموت ... القدر الأبدي للإنسانية . بعاطفة متحمسة للحياة. وهو الموقف الذي

تنافى مع نوع العقاب الذي لا مفر منه . من أجل تحقيق لا شئ. (33) وهذا هو الثمن الذي يجب أن يدفع لقاء انفعالات وعواطف أولاد البشر.

لقد احتلت هذه الأسطورة منذ نشأتها الأولى القرن الأول قبل الميلاد مكانا بارزا في مسيرة الحياة الأدبية والسياسية فهي من أساطير الفكر، والسلوك البشري، إنها الجسارة من أجل العيش، " ترمز الى الحياة التي تهتز أحيانا بالنسبة للبشر، ويعتريهم الشك . لذلك ينبغي على الإنسان دائما أن يبدأ من جديد " (34). حيث يعيد الكرة في عملية ابتداء دائمة وأبدية ومتجددة .

إن الصخرة التي حملها سيزيف في مهمة مستحيلة أصبحت رمزا للعمل العبثي ، "اذ ما أن يتم انجاز المهمة حتى ينبغي الشروع فيها ثانية " (35) ...هذا في الوقت الذي تساءل فيه المؤلف ... هل الحياة اليومية بالابتداء من جديد باستمرار تستحق أن تعاش ؟ .

إن سيزيف هو قرص الشمس الذي يطلع كل صباح من الشرق ويهوي غاربا في الغرب . ويعتبره الباحثون تجسيما وتشخيصا للأمواج المائجة ارتفاعا وانخفاضا أو للبحر الغدار .

ويعتقد الفلاسفة وأصحاب الرأي أن هذه الأسطورة ما هي إلا تجسيد للساسة الذين يطمحون، ويسعون إلى الكراسي والمناصب السياسية ، وأنهم مهزومون مغلوبون في مسعاهم بصفة دائمة مستمرة ، وأن الأسطورة والسلطة مجرد شئ فارغ في حقيقتها تماما مثل دحرجة الجلمود لأعلى التل .

وهناك رأي آخر يقول إنها رمز الصراع العبثي للإنسان في سبيل المعرفة ، وان عقابه تم بناء على صورة يظهر فيها سيزيف مدحرجا حجرا ضخما، وهو رمز الكدح والمشقة والحنكة والمهارة.(36)

وقد رأى كامو أن أسطورة سيزيف تجسد برأيه " هراء وسخف ولا منطقية ولا عقلانية الحياة الانسانية" ، ولكنه يختم بقوله : " إن المرء لا بد أن يتخيل أن سيزيف سعيد مسرور تماما كما أن النضال والصراع والكفاح ذاته نحو الأعالي والمرتفعات كاف وكفيل بملأ فؤاد الإنسان . إننا نعيش في هذه الحياة ونحارب فيها ،ونحن نعلم أن هذا بلا جدوى ....إننا جميعا سيزيف". (37)

هذا وقد ذهب صموئيل بيكت الى أن " أسطورة سيزيف تمثل ضمير العبث ، تعالج الأمر بمثالية مفرطة ، فلا كاتب له الحق في أن يعمل صورة بكل معانيها الإنسانية لمجرد شخصية روائية، وأسوأ من ذلك أن يكلفها بعمل الرسالة الإنسانية نفسها ". (38)

إن الشخصية الروائية لدى بعض النقاد الفرنسيين المعاصرين مثلها مثل"الشخصية السينـمائية أو المسرحية لا تنفصل عن العالم الخيالي ... انه لا يمكن للشخصية أن

توجد في أذهاننا على أنها كوكب منعزل، بل انها مرتبطة بمنظمة وبواسطتها هي وحدها تعيش فينا بكل أبعادها." (39) وهكذا كانت سيزيف تعيش فينا بكل جوانبها الغيبية، وبقوة دوافعها العبثية التي أدخلتها العوامل الخارجية في دوامة المستحيل .

موقف البير كامو من الثورة الجزائرية

كان مفهوم الثورة على المستبد الغاصب لحقوق الآخرين موضوع أخذ ورد ، منذ أن دخل هذا المفهوم في عالم اللغة السياسية والثقافية والتراث، عند كافة الأمم والشعوب على مدار العلاقات الإنسانية عبر التاريخ .

وذهب كثير من النقاد في العصر الحديث أن معناه " يقتصر على الغضب والهيجان فقط ". (40)

أما موقف هذا الأديب الجزائري المولد والنشأة فقد تباين واختلف في أطروحاته الفكرية ومواقفه العلنية المحكومة بالسياسة والمواطنة وأقل ما يقال عنها أنها سياسة شوفونية محكومة بمصطلح الانتماء العرقي لأمته فرنسا الاستعمارية. واتضح تماما أن مواقفه هذه قد تنازعتها مجموعة من العوامل يمكننا أن ندرجها وفق التصور الذي لمسناه عن قرب خلال قراءتنا لآثاره التي عبرت بطريقة وأخرى عن تلك المواقف في أماكن عدة.

ونستطيع الاستدلال على مواقفه السلبية من الثورة الجزائرية من خلال تصريحاته المنشورة وحواراته التي نقلت تلك التصريحات عبر زمن معايشته للأحداث الدامية التي شاهدتها الجزائر إبان ثورة التحرير .

لقد شاء القدر أن يولد البير كامو ذو الأصل الفرنسي، على أرض الجزائر. ويترعرع فيها ويصبح جزءا من نسيجها الثقافي، فهو ككاتب وموقف ...نتاج تلك السياقات التي وجد فيها ، وما كان له أن يكون غير ذلك . ومن ثمة كان حلقة وصل بين نقيضين لا يمكن الجمع بينهما. ووجد نفسه موزعا بين عاطفة الانتماء للوطن الأم ، وبين عقلانية الدفاع عن العدالة متمثلة في الجزائر .

وأغلب الظن أن تتويج كامو بجائزة نوبل أمام كبار الكتاب الفرنسيين الذين كانوا مرشحين للظفر بها كان التفافة من قبل لجنة نوبل لكاتب مغمور، صغير في السن والتجربة يمثل أدب المستعمرات ". (41)

إن موقف كامو من الثورة الجزائرية يمكن اختزاله في عبارته الشهيرة:" بأنه يؤمن بالعدالة ، ولكنه يختار أمه على العدالة ". (42)

وكان هذا التصريح يتناقض تماما مع الموقف الذي وقفه جان بول سارتر في كتابه المعروف* عارنا في الجزائر* الذي نقل به هذا الفيلسوف الأعمال الوحشية التي مارسها الاستعمار الفرنسي، بمنهجية غادرة تطبيقا وفعلا ضد أبناء الجزائر. إنها حقائق قد سجلت للرجل حين كشف فضائحها اللاانسانية، من تعذيب وقتل بصور

بشعة، وتصفيات بالجملة." تحدث عن حرية، وحقوق الإنسان الجزائري، وساند هذا الشعب في تقرير مصيره، وشجعه على ذلك، ومجد وعظم شخصيته من خلال ما كتب. وقد نظر إلى الشعب الجزائري بنظرة إنسانية فيها كثير من التبجيل وحتى الحنان ، لدرجة أن عديدا من أفراد الشعب الجزائري والعالمي اعتبره مناضلا ثوريا مع هذا الشعب " (43) . ونضيف إلى ذلك مواقفه العملية المتمثلة بمساندته المطلقة، ووقوفه بوجه وطنه فرنسا وضد التعسف والظلم والجور الذي لحق بأبناء الشعب الجزائري . ولم يتراجع هذا الأديب الفيلسوف عن مواقفه رغم التضييق الذي مارسه المستعمرون ضده ويتضح بجلاء موقف الالتزام المذهبي الذي نهجه بصدق وأمانة وتجلى ذلك فيما معناه: "إن حرب الجزائر كانت حربه ". (44)

ولم يكن هذا الموقف يتيما، فكان هناك الأديب الطبيب فرانتس فانون في كتابه * معذبو الأرض* الذي كشف فيه المعاناة والأفعال الإجرامية غير المسبوقة بوحشيتها حين فضح ما قام به الاستعمار الفرنسي من تنكيل، وتعذيب وتقتيل في حق أبناء الشعب الجزائري ، الذي نهض وهب إلى النضال والكفاح المسلح العنيف،لينتزع حريته واستقلاله الأبدي من يد قتلته وجلاديه .

إن فانون في كتابه أعلاه قد آمن معجبا بالثورة لجزائرية وبشخصية قادتها، وشخصية الشعب الجزائري ، وقد اكتسب هذا الإعجاب من خلال معاناة مرضاه الذين أشرف على علاجهم ، كما أدرك طبيعة الاستعمار الوحشية المضطهدة الظالمة والمستبدة. كان إنسانيا رحيما عايش دواخل مرضاه ، وتعاطف أيما تعاطف مع مآسيهم ، ومدى الاستغلال والاضطهاد والتفريق العنصري الذي يعانونه، مما أدى ببعض الأوروبيين وسماسرة الحرب إلى القول:" أن في الرجل عقدة نقص، فهو يكره البيض لأنه أسود" . (45)

انه لسؤال مشروع حين نطرحه على الحاضر الغائب الأديب البير كامو ، أين هو من كل ذلك ؟

تمثلت مواقفه في عدم نصرته للاستقلال الذي نادى به الجزائريون ضد مصادرة حقوقهم الوطنية في الحرية والانعتاق من ربق الاستعمار. وقد شرح موقفه هذا في بحث أكاديمي جامعي أعده ودافع عنه داعيا إلى بقاء الجزائر تحت رحمة فرنسا عن طريق الإدماج، معتقدا كالمستوطنين أن احتلال بلاده للجزائر سيعود بأفضال عليه بسبب تخلفه، وهو يلتقي بهذا الموقف مع مواقف كثيرين من مستوطني الأقدام السوداء الذين يبغضون الجزائريين حتى الموت.

وتبريرا لموقفه هذا عبر الروائيان الفرنسيان لويس بارتران و روبار رادو عن مؤلفاته بالقول: " كانت مسالمة ....تحدث فيها عن الطبيعة ..وعن حياته كأوروبي في بلد عربي". (46)

وهناك قضية أخرى بموقف آخر تتناقض مع الأولى إلاأنها لا تؤثر على الموقف الذي نهجه خلال مشواره الإبداعي وهي إدانته ورفضه للظلم الذي حدث في المذابح التي اقترفتها بلاده فرنسا 8 ماي 1945 في سطيف وخراطة وقالمة وغيرها من المدن الجزائرية. وقد عبر عن مساندته وشجبه للجرائم المقترفة في حق أبناء الشعب الجزائري. وبدا وكأن الرجل قد استيقظت به الروح الإنسانية ولم يكتف بالشجب فقط بل نشر مقالا مطولا في مجلة *كومبا* *المعركة* تحدث فيه لأول مرة وآخر مرة عن ميلاد كيان سياسي عربي في الجزائر. وظهرت ملامح إنسانيته كذلك حين قام بزيارة إلى منطقة القبائل ومدينة تيزي وزو 1949 حيث كتب مقالا بعنوان " البحث في منطقة القبائل" قال فيه : " مبكرا ذات صباح رأيت في تيزي وزو أطفالا يرتدون أسمالا بالية يتقاتلون مع كلاب قبائلية من أجل الحصول على محتويات صندوق قمامة". (47)

ويضيف قائلا : " انه لأمر جدير بالاحتقار أن نقول : أن هذا الشعب ليس له احتياجات مثل احتياجاتنا نحن الفرنسيين ، وحتى إذا لم تكن له بعض مثل هذه الاحتياجات ، فانه حان الوقت لكي نخلقها له ، وانه لشئ مثير للفضول أن نرى كيف أن خصال شعب يمكن أن تشرع الإذلال الذي فرض عليه . ذلك أن الأفكار الجاهزة والآراء المسبقة تصبح شنيعة وكريهة، إذا ما نحن طبقناهاعلى عالم فيه الناس يموتون جوعا وبردا، وفيه الأطفال يقتاتون من قوت الحيوانات من دون أن تكون لهم غريزتها التي تحميها من الهلاك ، والحقيقة أننا نعاشر شعبا متخلفا علينا بثلاثة قرون ونحن وحدنا فاقدو الحس". (48)

هل هي عودة الوعي المبطن ؟ ظاهره رأفة ،وباطنه استعلاء واستكبار وسموم ؟ . إن الجواب على ذلك قد تعرضنا له من خلال أعماله ولا داعي للإطالة . ونكتفي بالمثل العربي الذي يقول : " لا تنظر إلى عينيه ولكن انظر إلى ما تفعل يداه" .

وبعد مرور السنوات الطوال على فراقه الدنيا تعالت أصوات انقسمت واختلفت حول أفكاره وسيرته وهناك من نادى بإنصافهوإعادة الاعتبار له مما أثار موجة عارمة من الاختلاف في تقييم ذاته . وذهب كثير من النقاد وأصحاب الرأي الذين أبدوا وجهات نظر لم تعرف الإجماع حول منطلقاته الإنسانية . فهل كان منصفا في مواقفه من الثورة الجزائرية والحقوق الوطنية للشعب الجزائري تلك التي صودرت في ظلام الليل دون وجه حق، وبعدوان متصل يزيد عن 130 سنة عاشها الشعب الجزائري رازحا تحت الظلم والجبروت والطغيان ، فتساءل هؤلاء : أي جنسية يمكن أن يحملها البير كامو ؟ أجاب الناقد حميد عبد القادر حين حاوره الروائي الأمريكي فرانك ماكورت في لقاء أخذ معنى الدهشة قال:"حدثني عن البير كامو كروائي جزائري.والحقيقة أن المرء يجد نفسه حائرا أين يضع هذا الكاتب هل هو جزائري أم فرنسي ؟ هل تمنحه الجنسية الجزائرية بمجرد أنه ولد بالجزائر ؟ أم تعتبره فرنسيا لأن أصوله فرنسية ؟ أين نضع هذا الكاتب الذي لفظه الجزائريون والفرنسيون على حد سواء؟. بحث البير كامو عن

جنسيته في اليوتوبيا ودعا إلى التعايش في البداية، وتحدى عنصرية كبار الملاك ، ولكن حرب التحرير جعلته يغير كثيرا من مواقفه. دعا في البداية إلىإقامة نظام فيدرالي بين الجزائر وفرنسا لفترة معينة، ولكنه سرعان ما تخلى عن هذه الفكرة . فقد رمت به حرب التحرير إلى الجانب الآخر، فرفض دعوة جبهة التحرير الوطني واختار الصمت . لكنه في نفس الوقت راح يكتب رواية *الرجل الأول* ليبرر استحالة إيمانه بأفكار جبهة التحرير الوطني الجزائرية. رفض الثورة ورفض مسايرة أفكار غلاة الاستعمار من كبار ملاك الأراضي الذين اعتبروه بمثابة كاتب موال للسكان الأصليين ....

فأي جنسية لهذا الكاتب ؟

انها جنسية الكاتب الأديب البير كامو :...جنسية أدبية ..غير مرتبطة بوطن ...بل بعالم الأدب والفلسفة ...ذاك العالم الذي يحقق ما لم تحقق السياسة ....فهو عالم يحتضن المختلف والمغاير (49) وهكذا بدا لنا دون الثبات على رأي هذا ، وبمناسبة مرور خمسين سنة على وفاته طرحت قضية إعادة الاعتبار لهذا الأديب عن طريق تسيير قافلة تنطلق من باريس إلى الجزائر وفاء له واحتفاء به في هذه الذكرى ، ومع مرور الأيام لهذا الطرح بدأت أصوات المدافعين المتحمسين لكامو تخفت شيئا فشيئا إلى أن اختفت الفكرة تماما ، لأن الأمر أصبح يحيل فرنسا التي هي محل تجريم من قبل الرأي العام الجزائري ليمتد إلى شخص كامو . لقد عمقت هذه المناسبة من غربة صاحب ** الغريب ** ففضلا عن أنها نزعت عنه بقايا جزائريته التي حاول بعضهم بصدق نية أو بغيرها البحث فيها . إلاأن المناسبة لم تتحقق لفرنسا في استعادة كامو خاصة وأن أسرته رفضت نقل رفاته من الجزائر ليدفن في **البنتيون** مع عظماء فرنسا في قلب العاصمة الفرنسية باريس . . لقد اتضح الموقف...وطويت الصفحة.....

الهوامش

1 انظر ، أمونين ايمانويل ، مجلة البري ، البير كامو ودعاء المهابين ، ع 18 خاص عن البير كامو ، يناير 1950، ص 20 .

2- عبدالقادر مكاوي ، البير كامو، محاولة لدراسة فكره الفلسفي ، القاهرة ، دار المعارف ، ص 34 .

3- البير كامو ، الإنسان المتمرد ، ط1 ترجمه: نهاد رضا، بيروت ، منشورات عويدات ، 1963 ، ص.43

4- أنيس فهمي ، أدباء فازوا بجائزة نوبل ، ط 1 ، الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية ، القاهرة ، مركز الأهرام للترجمة والنشر بمؤسسة الأهرام ، شارع الجلاء ، ص 115 .

5- عبدالقادر مكاوي ، المرجع السابق ، ص 22 .

6- أنيس فهمي، المرجع السابق، ص 38.

7- مكّاوي عبد الغفّار ، البير كامو ، المرجع السّابق ، ص 22 .

8- أنيس فهمي، أدباء فازوا .... ، المرجع السّابق ، ص 38.
9- انظر ؛ المرجع السّابق ، ص 121 .
10- نقله ، المرجع نفسه ، ص121 .
11- كروكشانك جون ، ألبير كامو وأدب المرد ، ترجمة وتعليق: جلال العشري، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986 ، ص 29 .

12- أمينة رشيد ، قصة الأدب الفرنسي ، ط 1 ، القاهرة ، دار شرقيات ، د . ت ، ص 37 .
13- تريشييه ، الأدب الفرنسي في القرن العشرين ، ترجمه : حامد طاهر ، القاهرة ، دار الكتب ، 1992 د .ت . ص 68 .
14- انظر ، تريشيه ، المرجع السابق ، ص .68
15- انظر، المرجع السابق ، ص 192.
16– انظر ، أحمد عبد الكريم ، ليس دفاعا عن كامو ، جريدة الفجر : يومية جزائرية ، ع 2809 ، 3 جانفي 2010 ، ص 19 .
17- رمسيس يونان ، فلسفة البير كامو ، مجلة الثقافة ، ع 16 ، القاهرة، دار أخبار اليوم ، ص 21 .
18- فرانتس فانون ، معذبو الأرض ، ط 2 ترجمه ، د . جمال الأتاسي ، بيروت ، دار الطليعة ، 1966 ، ص 262 .
19- البير كامو ، الغريب ، ترجمه ، محمد غطاس ، ط 2 ، بيروت ، دار الآداب ، يناير ، 2004 ، ص 67.
20- المصدر نفسه.
21- الأخضر الزاوي ، دراسات في الأدب المقارن، صورة مدينة الجزائر العاصمة في الرواية العربية بعد الاستقلال وعند البر كامو، باتنة ، منشورات الجامعة، ص 97 -103
22- المرجع السابق ، ص 67 .
23- البير كامو الطاعون ، ترجمه : سهيل ادريس، ط 2 ، بيروت ، دار ألآداب، 1986 ، ص5 .
24- المرجع نفسه ، ص 14 – 15 .
25- المرجع نفسه ، ص 6.
26- المرجع نفسه ، ص 7 .
27- المرجع نفسه ، ص 19.
28- المرجع نفسه ، ص 49.
29- المرجع نفسه ، 49.
30- البير كامو ، الغريب ، سبق ذكره ، ص 124.
31- فرنسا العنصرية، مجلة الآداب، ع 1 ، بيروت ، دار الغد ، 1973 ، ص 87.
32- المرجع نفسه ص .87
33- البير كامو أسطورة سيزيف ، ترجمها : أنيس زكي حسين ، بيروت ، لبنان ، 1941-1942 ،ص 324.

34- ادوارد الخياط ، من الصمت إلى التمرد ، دراسة ومحاورات في الأدب العالمي ، كتابات نقدية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، مطابع روز اليوسف الجديدة ، ص 92.
35- عبد الغفار مكاوي ، البير كامو ، سبق ذكره، ص 32.
36- منتديات المشهد والأساطير ، جدلية التأثير والتأثر : 15 -02- 2011 : http//www.almechhad.com
37- البير كامو ، أسطورة سيزيف ، ص 332.
38- عبدالمالك مرتاض ، في نظرية الرواية ، الكويت ، عالم المعرفة، 1998 ، ص 76 .
39- ابراهيم خليل ، بنية النص الروائي ، الجزائر، ط 1 ، الدار العربية للعلوم ، 2010 ، ص 195 .
40- محمد يحياتن مفهوم التمرد عند البير كامو وموقفه من ثورة التحرير الجزائرية ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجزائرية ، 1984 ، ص 21 .
41- أحمد عبد الكريم ، بين تجريم كامو وتجريم فرنسا الاستعمارية ، جريدة الخبر الجزائرية ، الأحد 28 مارس 2010 ، 25.
42- نقله المرجع نفسه ، ص 25 .
43- انظر ، عبد المجيد عمراني ، جان بول سارتر والثورة الجزائرية 1954 – 1962 ، عين مليلة ، دار الهدى ، 2007 ، 139 – 147
44- جان بول سارتر ، نقله المرجع نفسه ، ص 170.
45- فرانتس فانون ، معذبو الأرض ، سبق ذكره .
46-حسونة المصباحي، البير كامو يكتب عن الجزائر، جريدة الشرق الأوسط،ع 9180 ،16 يناير 2004،ص 16.
47- المرجع نفسه ، ص 16 .
48- المرجع السابق، ص 16.
49- حميد عبدالقادر ، جريدة الخبر ، الأحد 21 فيفري 2010.

المصادر والمراجع

1. أحمد عبد الكريم : ليس دفاعا عن كامو ، جريدة الفجر ، يومية جزائرية ، ع 2809 ، 3 جانفي 2010 .
2. ----------: بين تجريم كامو وتجريم فرنسا الاستعمارية ، جريدة الخبر الجزائرية ، الأحد 28 مارس 2010 .
3. الأخضر الزاوي : دراسات في الأدب المقارن ، صورة الجزائر العاصمة بعد الاستقلال وعن البير كامو ، باتنة ، منشورات الجامعة ، ب.ت ..
4. البير كامو : الغريب ، ط2 ، ترجمه : محمد غطاس ، يناير 2004 .
5. -------- : الإنسان المتمرد ، ط 1 ، ترجمه : نهاد رضا ، بيروت ، منشورات عويدات ، 1963 .

6. -------- : الطاعون ، ط1 ، ترجمه : سهيل ادريس ، بيروت ، دار الآداب ، 1986 .
7. البير كامو : أسطورة سيزيف ، ترجمها : أنيس زكي حسين ، بيروت ، لبنان .
8. أنيس فهمي : أدباء فازوا بجائزة نوبل ، ط 1 ، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية ، القاهرة ، مركز الأهرام للترجمة والنشر بمؤسسة الأهرام ، شارع الجلاء .ب .ت .
9. أمينة رشيد : قصة الأدب الفرنسي ، ط 1 ، القاهرة ، دار شرقيات ، ب . ت .
10. ابرايم خليل : بنية النص الروائي ، ط 1 ، الجزائر ، الدار العربية للعلوم ، 2010 .
11. أمونين أمانويل : مجلة البري ،البير :امو ودعاء المهابين ، ع 18 ، خاص عن البير كامو ، يناير 1950 .
12. ادوارد الخياط : من الصمت إلى التمرد ، دراسة محاورات في الأدب العالمي ، كتابات نقدية الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، مطابع روز اليوسف الجديدة ، ب . ت .
13. حميد عبدا لقادر : جريدة الخبر الجزائرية ، الأحد 21 فيفري 2010 .
14. تريشييه : الأدب الفرنسي في القرن العشرين ، ترجمه : حامد طاهر ، القاهرة ، دار الكتب ، 1992 .
15. فرانتس فانون : معذبو الأرض ن ط 2 ، ترجمه : د . جمال الأتاسي ، بيروت ، دار الطليعة ، 1966 .
16. كروكشانك جون : البيبر كامو وأدب التمرد ، ترجمة وتعليق : جلال العشري ، القاهرة ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986 .
17. رمسيس يونان : فلسفة البير كامو ، مجلة الثقافة ، ع 16 ، القاهرة ، دار أخبار اليوم ، ب .ت .
18. حسونة الصباحي : البير كامو يكتب عن الجزائر ، جريدة الشرق الأوسط السعودية ، ع 9180 ، يناير 2004 .
19. عبدالقادر مكاوي : البير كامي محاولة لدراسة فكره الفلسفي ، القاهرة ، دار المعارف ب . ت .
20. عبدالمالك مرتاض : في نظرية الرواية ، الكويت ، عالم المعرفة ، 1998
21. عبدالمجيد عمراني : جان بول سارتر والثورة الجزائرية ، 1954 -1962 ، عين مليلة ، دار الهدى ، 2007 .
22. محمد يحياتن: مفهوم التمرد عند البير كامو وموقفه من الثورة . الجزائرية ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجزائرية ، 1984 .
23. مجلة الآداب الجامعية: فرنسا العنصرية، ع 1 ، بيروت ، دار الغد ، 1973 .
24. منتديات المشهد والأساطير: جدلية التأثير والتأثر، 15/ 02 / 2011 http://www.almachehad.com